قبضايات بيروت
زعماء المدينة وحماتها

زهير دبس

يردّ الباحثون أصل كلمة القبضايات إلى التركية، ومعناها "مروتلي" المؤلفة من كلمتين "مروءة" أي صاحب النخوة و"لي" المنسوبة للشخص. ويعود حضورهم في مدينة بيروت، إلى زمن الحكم التركي والانتداب الفرنسي. ففي ظل انتفاء المؤسسات الرعائية قبل تشكُّل الدولة اللبنانية، برز من أبناء الأحياء ما اعتبر "الحامي" و"المرجع" و"المسؤول" فكان "القبضاي"، الذي وجب أن تتوافر في شخصيته إضافة إلى ما ذكر، القدرة على القيادة والشجاعة والبسالة.

اضطلع قبضايات بيروت بأدوار ووظائف عدة سياسية ووطنية واجتماعية، فكانوا قبل تشكل قوات الأمن الرسمية بمثابة رجال المقاومة الشعبية وحماة الأحياء البيروتية، ناطقين باسمها، ومدافعين عنها وعن زعمائها، ومشرفين على شؤون المجتمع فيها.

حماة للشرف والكرامة

"الشرف" و"الكرامة" و"العرض"، ميزات وصفات تلازمت مع سِيَر القبضايات في مدينة بيروت، وكأنهم وجدوا لكي يحافظوا عليها، فكانوا مدرسة للأخلاق عنوانها حفظ الحرمات أولاً وآخراً، وما تخبرنا به أدبيات التراث البيروتي يؤكد المزايا العديدة التي طبعت حياة هؤلاء، من بينها مأثرة القبضاي "السردوك"، التي يعود تاريخها إلى قبيل منتصف القرن التاسع عشر، في زمن الحكم التركي، وما يُروى أن القبضاي المذكور، قتل أحد الرجال الذين قاموا بشتمه، وقد أدّت الحادثة إلى الحكم بإعدامه، ولما طلبت شقيقة المُجنى عليه، أن يقدم اعتذاراً مقابل أن يتم العفو عنه، رفض السردوك الاعتذار واعتبره ذلاً، وفي لحظة تنفيذ الإعدام قام السردوك برفس الكرسي من تحت قدميه، ودلّى نفسه للموت، وهو يردد :
أحمد محمد علي باشا بقتلي راد والمشنقة يا غانية مرجوحة الأبطال
رسخت الحادثة طويلاً في ذاكرة البيروتيين، وقد أرّخوا بها لمواليدهم ولأعمالهم فكان يقال: ولد يوم شنق السردوك.

مفاتيح انتخابية

كان لقبضايات بيروت مواقف تجاه الأحداث السياسية والعسكرية التي تجري في لبنان والعالم العربي، من بينهم عبيدو الانكيدار ونخلة العربانية وغيرهم، ممن ساهموا في تمرير المساعدات للمجاهدين في ليبيا بعد سقوط الجبهة العسكرية النظامية أمام الغزو الايطالي في العام ١٩١٢ .

مع ولادة الجمهورية اللبنانية، شكل حضور القبضايات أحد مظاهر السلطة الشعبية، إلى جانب السلطات العسكرية الرسمية الوليدة آنذاك، فانخرط عدد كبير منهم في العمل السياسي، امتداداً لحقبة سابقة تشكلت فيها خبرتهم، فكان من بينهم أبو عفيف كريدية الذي اشتهر بظرفه، وكان حاضر النكتة والتعليق.

عاش كريدية متنقلاً بين مجالس السياسيين، من رياض الصلح إلى عبد الله اليافي إلى صائب سلام، وكان بمثابة مفتاح انتخابي حاضر وفاعل في أصعب الظروف. كما عرف بدوي الفيومي (أبو زهير) الذي كان يعيش في

منطقة المصيطبة بمواقفه الوطنية وكان مؤيداً لآل سلام، وهو من القبضايات الذين أقاموا المتاريس في أحياء المدينة، وأثاروا الشغب فيها، رداً على اعتقال قوات الانتداب الفرنسي لرجال الاستقلال، وقد نال الفيومي لمواقفه الوطنية آنذاك، شهادات كل من حبيب أبو شهلا والمير مجيد أرسلان، والرؤساء صائب سلام وكميل شمعون.

الرئيس صائب سلام مع القبضاي ابو عفيف كريدية

كما عمل القبضاي عبد اللطيف النعماني (أبو طالب) مستشاراً للزعيم رياض الصلح. شكل المذكورون مراكز ثقل في الانتخابات النيابية والبلدية، إلى جانب قبضايات آخرين، أمثال الحاج أمين حجازي وعبد السلام جنون، وأبو مختار قليلات، وأبو عفيف البعدراني.

توظيفات وخدمات اجتماعية

شغل القبضايات مهمات متنوعة طبعت مسيرة كل منهم، كانوا بحكم عملهم مع رجال السياسة يؤدون الخدمات لطالبيها من أبناء مجتمعهم، ما أكسب معظمهم تسميات وفقاً لميزة كل منهم، فكان بينهم القبضاي "الكريم" و"الوجيه" و"صاحب القلب الكبير".

ضمن ذلك يذكر، فاروق شهاب الدين، الذي كانت أسرته تدير جانبًا مهمًا من أعمال مرفأ بيروت. قام هذا القبضاي بتوظيف عدد من الشباب من أبناء منطقتي المرفأ والبسطة الفوقا في أعمال المرفأ، ما عزز وجاهته

في المجتمع البيروتي. تميّز شهاب الدين بالقوة، وما تحفظه الذاكرة عنه، أنه كان يقوم بنقل البضائع من المرفأ الى أرجاء لبنان، على عربة تجرها أربعة بغال، أو على الطنبر، يساعده في ذلك شبان بيروتيون أقوياء يتبارون في تحمل المشاق، ودفع العربات نحو منطقة المرفأ حتى باب ادريس. ولاحقًا إبّان ثورة العام ١٩٥٨ كان لشهاب إسهام في ذلك.

فوارس وقواصون وعراضات

من التسميات التي اكتسبها القبضايات "الرياضي" وأشهرهم الحاج حسين خريرو، الذي كان يجيد المبارزة بالمسدس، وكانت مغامراته الغنية بالتحدي تدغدغ خيال الشباب، الأمر الذي جمع حوله الكثير من المؤيدين والمعجبين، ومثله أيضاً القبضاي أحمد البواب، الذي كانت له جولات وصولات مع قبضايات المزرعة والأشرفية والأسواق.

من القبضايات أيضاً "القواصون" الذين كانوا يعملون كمرافقين، وكانوا يتواجدون على مداخل الفنادق الكبرى في مدينة بيروت، وفي صالات استقبال السفراء الأجانب. وقد تميز هؤلاء بلباسهم المزركش والمزخرف المخصص للاحتفالات الرسمية، أشهرهم القبضاي عبد الله الملقب بـ"اللبان"، وكان قواصاً في السفارة الفرنسية في بيروت. يذكر أن السفراء الأجانب كانوا يختارون القواصين المسلمين لحماية جالياتهم، لأن الفرنسي الذي يقترف جريمة لم يكن يحق للشرطة اللبنانية القبض عليه آنذاك.

وهناك أيضاً القبضاي "الفارس"، وهؤلاء كانوا يشاركون في السباقات والاستعراضات وعرض البطولات، والألعاب البهلوانية التي كانت تقام في المناسبات الدينية والاجتماعية كالأعراس والأعياد الرسمية، من بينهم ابراهيم مصطفى العيتاني وسعد الدين الغضبان، اللذان كانا يستدعيان إلى السرايا في عيد الجلوس الهامايوني، ليعرضا حركاتهما البهلوانية المدهشة من على ظهور خيولهم.

كان للقبضايات أيضاً مجالس ومنازل وحدائق لزوم الصدارة، والتباحث في القضايا المختلفة. من بينهم القبضاي "الحكيم" سعيد حمد، الذي اشتهر بشجاعته ومعرفته للحق وسعيه إلى الحكمة. كما اشتهر بتسامحه وكرمه، وكان يملك مقهى في منطقة البسطة الفوقا، معروفاً بمقهى "حمد".

في وجدان اهل المدينة

مآثر عديدة تركها قبضايات بيروت في وجدان أهل المدينة، حتى أن قصصاً كثيرة منها شابتها المبالغات، كتلك المروية عن الآغا سليم كريدية الذي توفي عام ١٩٤٠، وقد كان هذا الأخير مصارعاً عنيداً، بلغت حكايات منازلته حد شطح الخيال، خصوصاً بعد أن هزم مصارعاً يونانياً كان يعيش في بيروت. إلى جانب كريدية برز الشرقاوي، وعبد العال، وسعيد منيمنة، وهذا الأخير ضربت بقوته الأمثال في منطقة التباريس والمرفأ، بعد أن استطاع بقوته أن يرفع عموداً رخامياً زنته 850 كلغ.

يضيق المجال هنا عن ذكر مآثر كل القبضايات في مناطق بيروت، نكتفي بأسماء عدد منهم في منطقة المزرعة: طانيوس خالدي، نيقولا كرم، صليبا مجدلاني، الياس الحلبي.

في الأشرفية: الحج نقولا مراد،، الاسطا باز. إضافة إلى عبيدو الانكيدار الملقب بـ (الشرقاوي) ورشيد قليلات، وسعد الدين قيسي، عكيف السبع ودرويش بيضون ونور العرب وهو القبضاي الوحيد الذي ألف كتاباً بعنوان (ذكريات شرطي)، وكان هو البطل فيه.

حكاية قبضايات بيروت، إحدى حكايات المدينة الكثيرة، التي لا تزال تملأ فضاء الأمكنة، قصصاً وبطولات من ذلك العالم الذي اختفى من الوجود، لكنه لم يختف من الذاكرة.

القبضاي الحاج نقولا مراد

المراجع:

نافذة على بيروت المحروسة
محمد أمين فرشوخ، "بيروتيات، قصص شعبية" دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨.